عمارتنا وطابعها القومى

للدكتور سيد كريم
الأستاذ بكلية الهندسة

لست أول معمارى يرفع الصوت مناديا بحاجتنا إلى طراز قومى ، فقد سبقنى الكثيرون ولم يطلبوا فقط أن يكون لنا طراز قومى بل ذهبوا الى ماهو أبعد من ذلك ، فوضعوا له أسسا وقواعد. وتنبأوا بما يجب أن يكون عليه هذا الطراز، وبما يجب أن يتشكل به من ابتكارات واقتراحات اقتبست من الطرز القديمة بعض خصائصها ، أو وجدت بين حلياتها مرجعا لزخارفها ، بينما رأى البعض الاخر تكوينه عن طريق مسابقات محلية أو عالمية تحدد أشكاله وقواعده ، ومع ذلك فسرعان ما تلاشت تلك النداءات فى ضجيج عجلة العمارة وهى تندفع فى طريقها الذى تشقه هى لنفسها ولم تكن كل محاولة أو اقتراح ، أكثر من ضربة مجداف فى تيار جارف تحاول تغيير سير مجراه . لقد طلبوا فى كل مرة تحديد الدواء ونسوا تشخيص الداء نفسه، فقبل أن نتكلم عن حاجتنا الى طراز قومى لعمارتنا يجب أن نعرف ما هى العمارة وكيف تلون طابعها من عصر الى عصر وتغير فى أمة عن أمة .

لم يخطئ "جوته" عند ما قال إن العمارة موسيقى متجمدة فهناك علاقة وطيدة بين الموسيقى والعمارة أثبتتها الأبحاث الحديثة ، فاذا كانت الموسيقى هى ترجمان العاطفة فتلك العاطفة قد تركت طابعا على الفن المعمارى ، فالموسيقى العربية ذات الأنغام المتقاربة والتكرار المستمر فى النغمات الثانوية ، يمكن قراءتها بسهولة فى مبانى الطراز العربى ، ذات التكرار السطحى المستمر بالنسبة للعقود و"فتحات ، كما أن الترادف المحور للنغمة الواحدة وجد له معادلا فى العقود والزخارف المستمرة ، كذلك الموسيقى الألمانية القديمة باختلاف طبقاتها والانتقال من الطبقات العميقة والأنغام الثانوية التى تتبعها الأنغام العالية المركبة وتوجد لها مراجع ناطقة فى طراز العمارة التى سايرتها فى هذه العصور ، كما أن العلاقة بين موسيقى الأوبرا فى كل عصر ، واختلاف أنغامها وطبقاتها كانت لها مراجع فى عمارة الرينسانس فى كل دولة ، وموسيقى الشعوب الهمجية وهى ليست الا عبارة عن نقر متواصل تجمدت وتمثلت فى عمارتهم التى هى عبارة عن أكواخ طينية متراصة ، وموسيقى الجاز بند الحديثة التى روعيت فيها سرعة فهمها

وتأثيرها التوقيعى الظاهرى السريع قد تمثلت فى مبانى الطراز الابتكارى أو طراز التطور الذى جمع التنافر وعدم التجانس والذى يجذب العين لأول وهلة ثم لا يلبث الانسان أن يمله بسرعة .

لم يخطئ "بارنس" عند ما قال إن العمارة فن مجسم اذا كان قد كشف تلك العلاقة عند ما كانت العمارة قد وضعت فى ذاك الوقت فى رأس قائمة الفنون ، ففى العصور التى تغلب فيها النحت والتصوير والزخارف ، وتغلغلت فى جميع مرافق حياة الانسان ومعيشته ، طبعت صورتها على جميع المبانى ، بل نحتت المبانى كالقطع الفنية الزخرفية . ونظرة سريعة الى أزياء ملابس العصور الوسطى الزخرفية وما قابلها من عادات الانسان التقليدية الزخرفية ، والتى ضحى فى سبيلها بالمنفعة والراحة سواء فى داخل مسكنه أو فى مجتمعاته العامة نجد تلك العلاقة واضحة جلية ، كذلك تركت الصناعات اليدوية الفنية الدقيقة من حفر وتطريز فى العصر العربى أثرها فى الطراز المعمارى ، كما أن كلا من موجات الكوبزم والريالزم قد ظهر أثرها فى العمارة نفسها ، وكما ظهر فن الصناعات الآلية والتى حلت محل الصناعة اليدوية على طابع العصر الحديث .

ولم يخطئ "اوتو" عند ما قال إن العمارة هى الصفحة التى تقرأ فيها ثقافة الشعب على حقيقتها وهذه لا تحتاج الى شرح ، فثقافة العصور الوثنية والخرافية ظهرت جلية فى طرز عمارها ، وثقافة الشعوب الهمجية قرئت على أسطح أكواخها ، وعند ما مالت ثقافة الأمم نحو الفنون على أنواعها انطبعت تلك الفنون على مبانيهم من نحت ونقش وتصوير ، بل جسمت المبانى نفسها ، وعند ما صارت ثقافة العالم نحو المدنية العلمية الآلية الحديثة نفضت العمارة عن نفسها تلك الزخارف المستعارة وسارت فى طريق الصناعة والاختراع لرفع مستوى المعيشة الاجتماعية .

ولم يخطئ "بيتر ماير" عند ما قال إن العمارة هى سجل مبادئ الشعب السياسية ، فتطور الحالة السياسية يتبعها دائما تطور فى العمارة ، فلكل حرب من الحروب أثرها فى العمارة ، ولكل ثورة من الثورات الانقلابية انقلاب فى العمارة ، فنظرة واحدة الى العمارة الألمانية الحديثة والتى طبعت بطابع الدكتاتورية بمبانيها الضخمة التى تنطق بالقوة والسيطرة والنزعة الحربية ، ثم مقارنتها بمبانى الطراز الرومى الحديث والذى اختفى منه فارق الطبقات وظهرت فيه روح الشيوعية مجسمة ، حيث شمخت مبانى العمال برأسها وسيطرت على طراز الأمة أو طابعها ، ثم العمارة الفرنسية غير المتجانسة ، التى جمعت من كل الطرز الشيوعية أو الزخرفية والشرقية متجاورة ، ثم العمارة الانجليزية ، التى مالت نحو التقاليد مع الخطوات البطيئة والثابتة نحو التطور مع التجانس القومى ، ثم العمارة السويسرية المتجانسة والتى تمثلت فيها الديمقراطية الحقة وبعدها عن المظاهر الشكلية ، مع التعمق فى التعاون القومى ، لدليل على صحة نظريته .

كذلك لم يخطئ "ارفنج بيند" عند ما وجد الحلقة المفقودة بين أشكال الطرز المعمارية المختلفة وأشكال الشعوب وأزيائهم ، فهناك علاقة بين جسم الإغريق بحرامه وعضلاته وعضلات جسمه العارى ، وأعمدة مبانيه الزوريك ذات الخطوط الطولية القوية البسيطة التى تطورت مع تطور معيشته وملبسه ومظهره حتى كسيت بمختلف الزخرف والنقش عند ما وصل إلى ماسموه بعصره الذهبى ، ثم العربى بعمامته وقفطانه وتمشيهما مع المبانى التى تكسوها القباب والتقاسيم الطولية والعرضية ، وحجاب المرأة وما قابله من حجاب المسكن العربى ذو الحوائط العالية الخالية من الفتحات التى إن وجدت أخفيت تحت براقع كثيفة من المشربيات ، كما أن العلاقة بين أسطح المبانى الصينية المائلة وتمشيها مع أغطية الرأس وميل فتحات العين والحواجب ، ثم ذلك التشابه الكبير بل الطرز الفرنسية القديمة المكدسة بالزخارف وملابس القوم وتصفيف شعر الارستقراط المجعد والمموج على أنواعه ، كما ذهب ارفنج الى أبعد من ذلك ، حيث أثبت أن قطاعات الكرانيش المختلفة للمبانى لم تأت عفوا إنما هناك روح أملتها ، إذ أمكنه إيجاد العلاقة بين أشكال وجوه الأشخاص الجانبية Profie للأجناس المختلفة وعلاقتها بقطاعات تلك الكرانيش وخطوطها ومنحنياتها .

لم يخطئ واحد من هؤلاء إذا كان قد نظر إليها من جهة واحدة . . . من الجهة التى يحس بها أكثر من غيرها ، فالطراز المعمارى يكون نتيجة لمؤثرات ومتوازيات تعمل مشتركة على تكوينه وطبعه بطابع العصر والمكان .

أما المؤثرات فأولها الجغرافيا وطبيعة المنطقة ، ولها تأثيرها الشكلى والنفسانى كمبانى الأراضى المنبسطة الخضراء التى اختلفت عن مبانى الصحراء وعن مبانى الجمال وهكذا ، إما للتأثير الشكلى أو لعلاقة الألوان ببعضها .

ثم الجيولوجيا التى مدت العمارة بالمواد . . مواد البناء القومية ، وتتبعها طرق الإنشاء الملائمة لها ، فوضعت الأعمدة الضخمة والحوائط المائلة للعمارة الفرعونية ، والعقود والقباب فى مبانى الطوب .

ثم الجو والمناخ من اتساع الفتحات تبعا لحرارة الشمس وقوة الضوء ، إلى الأسقف المسطحة والمائلة تبعا لغزارة الأمطار .

ثم الدين والعقائد وأثرها واضح فى كل طراز معمارى .

وللتاريخ أثره فى العمارة ، فطراز البلد يتغير ويتكون من العوامل التاريخية مجتمعة ، ويكاد يكتب الطراز المعمارى التاريخ على صفحات مبانيه ، وأقرب مثل لذلك مصر منذ بدء العمارة الفرعونية فيها إلى وقتنا هذا ، فقد طبع العرب طابعهم على المساجد وخلفوا العقود والقباب ،

وجاء الفرنسيون بطرازهم المجدد والأتراك بقبابهم المنخفضة ، والانجليز وقدبذروا بذور الطراز القوطى ، ثم جاءت العمارة الحديثة من جميع النواحى فتخبطنا بين أركانها عند ما حاولنا تقليد ظواهرها قبل فهم أغراضها .

وللحياة الاجتماعية أثرها ، فطالب الانسان دائما فى تغيير ، ولكل عصر مبان جديدة ، فكما أن المعابد طراز عصر والمساجد طراز آخر فستكون ناطحات السحاب ومبانى المكاتب طراز عصر آخر .

أما المتوازيات ، أى نتيجة المؤثرات منفردة أو مشتركة فهى الأزياء والموسيقى والعادات والطباع ومكملات الحياة من طرق للمواصلات وأثاث للمسكن ، ثم الفنون الجميلة وتمثلها جميعا الثقافة العامة .

فالطراز القومى هو إذن التعبير الصريح عن تلك المؤثرات ومرآة تنعكس عليها جميع المتوازيات ولا يمكنه أن ينحرف عنها .

إن للعمارة عندنا طابعا قوميا أو طرازا خاصا بها تنعكس على صفحته جميع المتوازيات ، فعادتنا التى أصبحت وليس لها اتجاه واحد : فهذا يقلد الغربى فى مركبته وسكناته ، وآخر فى عاداته وحفلاته ، تقليد الأعمى ، وثالث لازال محتفظا بالقديم يعيش العيشة الشرقية المقفلة ، ورابع وخامس وهكذا ؛ كذلك أزياؤنا جمعت من جميع الشعوب والعصور فى آن واحد . فلنقف هنيهة فى أى شارع من شوارعنا الكبرى ونحصى ما يمر بنا فى مدة لا تزيد عن العشر دقائق من أنواع الملبس ومختلف الأزياء . سنرى لابس العمامة والبدلة ، والجلابية والفراك ، والجلابية والجاكتة ، والقميص والسروال ، والملاية اللف والبرقع واليشمك والدكولتيه وو الخ ، ولكل مجموعة منها نماذج وعينات لا حصر لها ، فهى ليست بغريبة عن طابع الشارع بأكمله وما يحويه من تناقض يتوازى مع تلك الأزياء ، فطرق مواصلاتنا فى نفس الشارع جمعت بين العربة الحنطور طراز القرن الماضى ، والسيارة مودل سنة ١٩٤٠ والعربة السوارس والعربة الكارو وراكب الجمل والحمار متجاورة ، ثم تقارنها بموسيقانا القومية الحديثة التى خلطت بين التقاسيم التركية والأوبرا الطليانية والتانجو الاسبانى والفالس النمساوى والموال البلدى ، فى دور واحد ، وقس على ذلك جميع مرافق حياتنا الأخرى .

فالعمارة ما هى إلا المرآة التى انعكست على صفحتها جميع تلك المتوازيات فجمعت من جميع الطرز فأخذت من العربى عقوده ، ومن الكلاسيك نسبه ومن الرينسانس محاوره ومن الطراز الحديث اسمه .

فمن الخطأ أن نحاول ابتكار طراز قومى أو ننادى بتحديد طراز قومى لعمارتنا ، فكيف نطالب من المرآة أن تعكس غير الواقع ، غير الحقيقة المؤلمة ، كيف نفكر فى تغيير الخيال المنعكس على صفحة المرآة وتترك الجسم المنكوس نفسه .

لقد كان لنا طراز قومى له طابعه وعاداته ومتوازياته ومواد بنائه وطرق إنشائه . . وهو الطراز الفرعونى ، وذلك عندما كان لكل قوم ثقافة مقفلة بين حدود وطنه . مرت على ذلك الطراز أجيال ارتبطت ثقافتنا فيها بثقافات الدول المجاورة فطبعنا بتلك الثقافة الجديدة المشتركة . أصبحت لنا عادات غير تلك التى ورثناها عن الفراعنة ، ودين جديد له تقاليده وشرائعه ، وحلت مواد جديدة للبناء من طوب وخشب وزجاج محل الجرانيت والصوان وطرق جديدة للإنشاء فأصبح عندنا طراز منطق (فى منطقة تمتد من بلاد العرب شرقا إلى اسبانيا غربا) قطع الصلة بيننا وبين الطراز القومى . . . . وها هى عدة أجيال أخرى قد مرت ارتبطت خلالها ثقافات المناطق بعضها ببعض أوهى فى طريق الارتباط . بدأت ثقافة العالم ومدنيته تسير فى طريق واحد ، بدأت جميع المتوازيات من طرق للمواصلات إلى أزياء للملبس وعادات ووسائل اللهو تتجه فى اتجاه واحد ، كان لتلك المدنية العلمية الآلية الحديثة أثرها ، مدتنا بمواد جديدة للبناء من حديد وخرسانة وغيرها من انتاج الصناعة الحديثة وطرق جديدة للإنشاء وقطعت الصلة بين عمارتنا المنطقية وعمارتنا الحالية حتى المؤثرات الجوية والجغرافية التى حددت فوارق الطراز المنطق فى أمة عن أخرى بدأ العالم يسيطر على معظمها ن مقاومة للعوامل الجوية ، إلى تكييف للهواء مما لا حصر له ، فأصبح للعالم أو سيصبح له طراز عالمى أو طراز مشترك .

ولكن كما أن الطراز المنطق أو العربى قد اختلف على مر الأيام فى مصر عنه فى العراق وأسبانيا بفروق سطحية تبعا لبعض الفروقات الجوية والاقتصادية والجيولوجية فكذلك الطراز العالمى الذى هو طابع المدنية الحديثة سيختلف بعد نموه وتكوينه فى كل دولة عن الأخرى كالعمارة اليابانية الحديثة والسويسرية والتركية والطليانية والفرنسية الحديثة التى كان لكل منها طراز تاريخى دام أجيالا ، فكل منها قد قطعت الصلة بتلك الطرز الموروثة وانطبعت بطابع العصر والقومية .

لوكان الطراز هو العقود والقباب ونسب الوحدات فلا يجب أن ننسى أن الصراحة فى التعبير عن مواد البناء وطرق الانشاء الخاصة بكل منها هى التى حددت تلك الأشكال والنسب ، فالعقود بأشكالها والأعمدة بنسبها والحوائط بأسمائها نشأت كلها على أساس إنشائى صريح مرتكزا على علم مقاومة المواد . إن العقود التى بناها العرب بالطوب غير تلك التى بنوها بالحجر الجيرى ،

غير تلك التى بنوها عند ما استعملوا الحجر الرملى ، فلو بنى قدماء المصريين بالطوب والخشب لما غطوا فتحاتهم بالكمرات والأعتاب ، ولو بنى العرب بالخرسانة والحديد لما لجأوا الى العقود والقباب لتغطية الفتحات والصالات .

لست أفهم أن تبنى العمارة فى مصر وفى القرن العشرين بالخرسانة المسلحة والحديد ثم تغطى بالبياض الذى نرسم عليه الحجارة والطوب .

لست أفهم أن تبنى شرفات عماراتنا بالخرسانة المسلحة ونعلق فى أسفلها كوابيل من الجبس باسم الطراز فأصبحت الشرفات تحمل الكوابيل بعد ما كانت الكوابيل تحمل الشرفات .

لست أفهم أن نعطى الأعمدة الخرسانية نسب الحجر والطوب ونترك داخلها خاويا أو نبنيها بالحديد ونكسوها بحلة مستعارة من الجبس والسلك تقليدا للطوب والحجر .

لست أفهم أن نبنى بالحديد والخرسانة ونغطى فتحات مبانينا بالعقود المختلفة ونكسوها بالبياض الذى نرسم عليه تقسيم الطوب والحجر .

لست أفهم أن نكسو حوائطنا بالبويات ونرسم عليها الرخام والخشب .

أيريدوننا نحن المعاصرين أن نظن أنها بنيت بمواد بناء الماضى وطرق إنشاء الماضى ، لا ، فقد رأيناها رأى العين ، إنما سيكون منها لأحفادنا عندما تتقوض أركانها ويتكشف ما استتر منها مادة لنكاتهم وضحكهم حينما يتكلمون عن عمارتنا القومية التى هى طابع قوميتنا .

فلا التقليد الأعمى ولا التقاليد الموروثة ولا الابتكار ولا التجديد هى التى ستحدد طرازنا القومى .

إننا فى فترة انقلاب لها خطرها . لقد ارتبطنا بالمدنية العالمية الحديثة ، وبدأنا نتطبع بها . اتصلت ثقافتنا بثقافة تلك المدنية العلمية الجديدة التى هى طابع العصر الذى نعيش فيه ، فنزلنا بسفينتنا الصغيرة فى تيارها الجارف طائعين أو مرغمين . أردنا أن نخطو فى يوم ما خطى الغرب فى أعوام فأخذنا من تلك المدنية مظاهرها قبل أن نتشبع بمبادئها ونتثقف بها فتشتت اتجاهاتنا ، وتنافضت عاداتنا ، وتباينت أزياؤنا فانعكس كل ذلك واضحا جليا على صفحة المرآة . التى هى طابعنا المعمارى الذى نشكو منه .

إن لنا طابعا قوميا ولكنه يحتاج الى توجيه صحيح . يجب أن نعرف كيف نقود السفينة لتساير التيار . يجب أن تكون ضربات مجاذيفنا متزنة ومتحدة أو متضامنة . إننا فى حاجة الى تضامن قومى فى عاداتنا ، فى أزيائنا ، فى مطالبنا ، فى مبادئنا ، فى معيشتنا ، فى أعمالنا . يجب أن نتكاتف فى كل مهنة ، وعندئذ سنصل حتما متضامنين إلى الطابع القومى الذى نسعى اليه وطالما نادينا به .

إن كان لزاما علينا أن نصف الدواء فيجب أن نضع الأصبع على موضع الداء نفسه .

إن ثقافتنا قد أصبحت تجارية ، أى النوع الذى يسميه علم الاقتصاد بترويج السلع الفردية الرخيصة ، فكل مهنة من المهن التى هى قوام ثقافة الشعب قد أصبحت سلعة رخيصة يتجر بها كل من ضاقت به سبل العيش . الشعب لا يعرف فيما الخطأ من الصواب ، ولا يمكنه التفريق بين الجيد والأجود ، فأصبح فى اتجاه الناحية الاقتصادية الشكلية التى يدفع ثمنها مضاعفا وهو لا يشعر ، وفى نفس الوقت هى وصمة فى جبين ثقافتنا المعمارية .

يجب أن تكون للشعب قدوة فى عمارة مبانيه العامة والحكومية ليسترشد بطابعها ولتوجهه الى الطريق الصحيح . فان كانت تلك المبانى ليس لها طابع خاص واختلفت فى مبنى عن آخر فلنعذر الشعب اذا تشعبت اتجاهات عمارة مبانية وضل الطريق .

نحن فى حاجة الى قوانين معمارية تلائم حالتنا الراهنة التى ليس لها مثيل فى العالم أجمع ، فالقوانين التى وضعت للدول الغربية لا تنفع لنا . اننا فى حاجة الى قوانين خاصة بنا تراقب كل دقائق عمارتنا من مواد الإنشاء الى طرق البناء ، إلى شكل المبنى ثم إلى علاقته بالمحيط المجاور له من المبانى .

نحن فى حاجة الى قوانين معمارية صارمة تعمل للصالح العام ، تطأ حب الذات والمنفعة الفردية فى سبيل قومية المجتمع .

نحن فى حاجة الى قوانين معمارية تحدد مسئولية ، وتقرر عملا ، وتقر حقوقا لكل من المعمارى والمقاول والمالك ، والتاجر والسمسار .

نحن فى حاجة ماسة الى راع ومراقب يهيمن على زمام عمارتنا . أى فى حاجة الى بلدية تسيطر على الحركة المعمارية ، وتتأكد من صلاحية كل حجر يوضع فى بناء طرازنا المعمارى فنمهد الطريق لإحياء طابعه القومى .

سيد كريم
أستاذ بكلية الهندسة